(١٦) سفيان الثوري[١]

ذكر سفيان الثوري قدّس الله سرَّه:

كان رحمه الله كبيرَ الشأن، مشارًا إليه بالبنان، ولهذا سُمّي بأميرِ المؤمنين، وإن لم يشتغل بالخلافة، وكان مقيّدًا بالحقّ، وصاحبَ قبولٍ في الدِّين، وفي العلوم الظاهرة والباطنة، عديمَ النظير.

أقول: وهو أحد المجتهدين الستة، وهم المذكورون في هذين البيتين:

وإن شئتَ أركانَ الشريعة فاستمعْ ... لتعرفَهُمْ واحفظْ إذا كنتَ واعيا
محمدُ والنعمانُ مالكُ أحمدُ ... وسُفيانُ واذكرْ بعدُ داودَ تابعا[٢]

والله أعلم.

وله في الورع والتقوى يدٌ طُولى، وأدبٌ حسن، وتواضعٌ عظيم، ومن أول أمره إلى آخره كانت أعماله وأحواله على سنن واحد[٣].

نقل أنه حين كان في بطنِ أمهِّ، طلعتْ أمُّه في بعض الأحيان على السطح،

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٧١، طبقات خليفة ١٦٨، تاريخ خليفة ٣١٩، التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٩٢، التاريخ الصغير له ٢/ ١٣٩، ١٤٢، المعارف ٤٩٧، الجرح والتعديل ٤/ ٧١٣، الثقات لابن حبان ٦/ ٤٠١، مشاهير علماء الأمصار ١٦٩، حلية الأولياء ٦/ ٣٥٧ـ ٧/ ١٤٤، تاريخ بغداد ٩/ ١٥١، صفة الصفوة ٣/ ١٤٧، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٥٤٠، جامع الأصول ١٤/ ٢٣٢، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٢٢، وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٦، تهذيب الكمال ١١/ ١٥٤، سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٣، العبر ١/ ٢٣٥، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٧٨، تهذيب التهذيب ٤/ ١١١، طبقات الشعراني ١/ ٤٧، الكواكب الدرية ١/ ٣٠٣، شذرات الذهب ١/ ٢٥٠.

(٢) البيتان في طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣٣١، ليحيى بن سلامة الطَّنْزي الحصكفي. قالهما جامعًا أسماء الأئمة الستة. وفي الطبقات: لتعرفهم واحفظ إذا كنت سامعًا.

(٣) في (أ): على سنن دائم.

وحطّت في فمها بأصبعِها من سطحِ الجار حامضًا كان هناك، ونزلت، وشرعَ هو في البطن يتحرَّكُ ويضطربُ، ولا يسكنُ حتى عرفتِ الأم أن لعقَتْ أصبعًا من ذلك الحامض بلا إذنٍ، فذهبت إلى الجارِ، واستحلَّتْ ذلك، فاطمأنَّ بعدَه، وسكن.

حكي أنه في ابتداء الحال وضعَ يومًا رجلَه اليُسرى في المسجد قبلَ اليُمنى غافلاً، فسمع صوتًا قيل له: يا ثور. وغُشي عليه، فلمّا أفاقَ أخذَ لحيتَهُ بيده، وشرعَ يضربُ على وجهِهِ ويلطمُهُ، ويقول: أسأتَ الأدبَ نوبةً في دخول المسجد نُوديت باسم البهائم، وأُخرجَ اسمي من أسماء الإنسان، والحال أن من سبعين سنةً أَسأتُ الأدبَ في الإسلام، فكيف يكون حالي؟

وقيل: إنه وضعَ قدمًا في زرعٍ، فنودي: يا ثور، وهذا من غايةِ عنايةِ الحقِّ كان في حقِّه، فإنه ما قدرَ على وضعِ قدمٍ بخلافِ السُّنة، وقيل: ما نام عشرين سنة.

نقل عنه أنه قال: ما رَويتُ حديثًا عن رسول الله ﷺ إلاّ عملتُ به، وكان يقول لأصحاب الحديث: أدّوا زكاةَ الحديثِ. قيل: وما زكاة الحديث؟ قال: أن تَعملوا من كلِّ مئتي حديث بخمسةِ أحاديث.

نقل أن خليفة العصر كان في المسجد يُصلّي، وبيده يعبث بلحيته، فقال له سفيان: ليست هذه الصلاةُ بصلاةٍ؛ بل تُلَفُّ هذه الصلاةُ في القيامة في خرقةٍ، ويُضرب بها على وجهك[1]. قال الخليفة: مهلاً يا سفيان. قال سفيان: قلبي

---

(١) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الصلوات لوقتها، وأسبغ لها وضوءها، وأتمَّ لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهي بيضاء مسفرة، تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومن صلى لغير الصلاة لغير وقتها، ولم يسبغ لها وضوءها، ولم يتمَّ لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهي سواء مظلمة، تقول: ضيَّعك الله كما ضيَّعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لُفَّتْ كما يُلفّ الثوب الخلق، ثم ضُرب بها وجهه». رواه الطبراني في الأوسط ٣/ ٢٦٣ (٣٩٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٣٠٢: وفيه عباد بن كثير، وقد أجمعوا على ضعفه.

ينقلبُ دمًا من مُشاهدة مثل هذه الأفعال، ولا أقدرُ على السكوت. وكلامُه قد أثّر في قلب الخليفة، وأضمرَ منه، ثم بعد مدّةٍ أمر أن تُنصبَ خشبةٌ ليُصلب عليها سفيان جزاءً لسوء أدبه في حضرة الخليفة، وسفيان كان في بيته غافلاً عن ذلك، وعنده سفيان بن عيينة، وشخصٌ آخر من المشايخ، وهو كان نائمًا، فقال أحدُهما للآخر: نُعلمه الحكاية أم لا؟ وهو كان مُستيقظًا، فسمعَ مقالتهم، واستخبرَهُ عنهم[1]، فقالوا ما جرى من الأمر، فقال: لا أحبُّ حياتي؛ ولكن ينبغي أن لا يُتركَ الحقُّ، فدمعت عيناه، وقال: إلهي، خذه أخذَ عزيزٍ مقتدر. والخليفةُ كان جالسًا على سريرِ الملك، وعنده جماعةٌ من خواصِّه وأركانِ دولته، سمعوا صوتًا من جانب السقف، وانهدمَ البيت، ووقع السقفُ على الأرض، وهلك الخليفةُ والذي حوله، وجاء الخبرُ إلى سفيان، وهو بعدُ جالسًا في بيته مع الشخصين، قالا له: يا شيخ، دعاءٌ مُستجابٌ بهذه العجلة! قال: نعم، إنّي ما أرقتُ ماءَ وجهي على هذا الباب قطُّ.

نقل أنه استُخلفَ خليفةٌ آخرُ، فاعتقدَ في سفيان اعتقادًا عظيمًا إلى أن مَرِضَ سفيان، وبعث إليه الخليفةُ طبيبًا من خواصِّ أطبائه، ونظر الطبيبُ إلى قارورته قال: هذا رجلٌ صارَ كبدُهُ من خوف الله دمًا، وينزلُ إلى المثانة قليلاً قليلاً. وكان الطبيب كافرًا، فآمن، وقال: الدين الذي يكون فيه مثلُ هذا الشخص لا يكونُ باطلاً. قال الخليفة: حسبتُ أنّي بعثتُ الطبيبَ إلى المريض، والأمرُ كان بالعكس، فإنَّ الطبيب كان مريضًا والمريض طبيبًا.

نقل أن سفيان رحمه الله كان في أيام الشباب مُنحني الظهر، فقيل له: يا إمام المسلمين، مالك صار ظهرُك في أوان الشباب مُنحنيًا؛ مع أن أترابَكَ ليسوا كذلك؟! وما كان يُجيبهم حتى ألحُّوا عليه، قال: كان لي شيخٌ، وهو كان عالمًا كبيرًا نحريرًا فاضلاً، وأنا كنتُ أتردَّد إليه وأتَّلمذُ عليه، فلمّا انقضى عمرُهُ، ووصلتْ سفينةُ حياته إلى ساحل الأجل، كنت عنده، فإذا هو فتحَ عينيه وقال:

---

(١) في (ب): واستخبر عنهم.

يا سفيان، انظر ماذا يفعلون معي، أنا منذ خمسين سنة أدعو الخلقَ إلى الحقِّ وأَهديهم إلى الصراط المستقيم، فالآن يردّونني ويَطردونني عن هذا الباب، ويقولون: أنت لا تنبغي لنا. وحين انتهى إلى النَفَسِ الآخر صار ـ والعياذ بالله ـ يهوديًا، وخرجَ من الدنيا على ذلك، وإنّي لمّا اطَّلعتُ على الحال ثقلَ ظهري من هذا الحمل، حتى انحنى. نسألُ الله عزّ وجلّ أن يَعصمنا عن ذلك بلطفه وكرمه؛ إنه سميعٌ مُجيب.

نقل أنه جاء إليه شخصٌ ببدْرَةٍ، وقال: أبي كان من أصدقائك وكان طالبًا للحلال، وتوفّي إلى رحمة الله، وهذا من ميراثه، نرجو منك أن تقبلَهُ. فقبله سفيان، ولمّا رجعَ الرَّجلُ دعا سفيانُ ابنَهُ، وقال: اذهب بهذه البَدْرَةِ إلى ذلك الرجل، وسلّمها إليه، وذلك لأنّه خطر بباله أنّ الصداقة مع أبِ ذلك الرجل كانت لله تعالى، فابنُه امتثل الأمر، وذهب بها إليه، ورجع ابن سفيان وقال: يا أبت، أنا رجلٌ فقير، صاحبُ عيالٍ، وأنت لا تترحَّم عليَّ. قال: يا ولدي، لأجل أن تأكلَ أَبيعُ الصداقةَ لله تعالى بصداقتك، وأنت لا تَنفعُني يوم القيامة.

نقل أنه كان يَمشي، ومعه شخصٌ، فاتّفقَ له العبور على دارٍ عالٍ لشخصٍ مُحتشمٍ، فنظر رفيقُه إلى ذلك الدار، ومنعه سفيانُ عن النظر إليه، وقال: إنّكم لو لم تنظروا إليه، لم يكن صاحبُهُ مُجتهدًا في إعلائه وتَشييده، وحينئذ أنتم شركاء له في الإسراف.

نقل أنه ماتَ جارٌ له، وهو أيضًا قد شيّع جنازته، ولمّا رجعَ سمعَ الناسَ يُثنون عليه ويشكرونه، قال: لو أنّي علمتُ أن الناسَ كلَّهم راضون عنه لما شيَّعتُ جنازته؛ فإن هذا ـ أي رضا جميع الناس عنه ـ قرينةُ النفاق.

نقل أنه كان يقعد في مقصورةِ الجامع، وجيء إليها بمجمرةٍ من بيت الخليفة، وحين إليها وصلَ رائحةُ المجمرة، ترك ذلك المقام، وما ذهب إليه بعدُ احترازًا من أن يشمّ رائحةً من المجمرة.

نقل أنه لقي رجلاً قد فاته الحجُّ، وهو يتأسَّفُ ويتحسَّر ويتحزّن ويتأوّه،

فقال له: يا فلان، إني قضيتُ أربعة عشر[١] حجَّةً، فأعطيتُك كلَّها بهذا التأوّه والحزن. فقبلَ الرجلُ، وأعطاه ذلك، ثم رأى سفيان في المنام أن قائلاً قال له: ربحتَ يا سفيان، إذ لو قُسم ثوابُ ذكرِ التأوّه على جميع أهلِ الموقفِ لصاروا أغنياء.

نقل أنه كان في الحمام، إذ دخلَ عليه أمردُ، قال: اخرجوه، فإنّ مع كلِّ امرأةٍ شيطانًا واحدًا يُزيّنها في أعين الناس، ومع الأمردِ ثمانية عشر شيطانًا يزيّنونه في أعين الناس.

نقل أنه [كان] يقول لأصحابه: اصبروا على ترك الطعام؛ فإنَّ غايةَ لذّتِهِ إلى الحلق، وإذا وصل إليه وعبر منه لا يُدرك منه طعمٌ ولا لذّةٌ، والشيءُ الذي يمرُّ سريعًا يمكنُ أن يُصبر عنه.

نقل أنه [كان] يعظّم الفقراء إلى حيث أنّهم يكونون في مجلسه كالأمراء والأشراف.

نقل أنه كان في هودجٍ رائحًا إلى مكّة، وهو يبكي أكثرَ الأوقات، فسأله يومًا رفيقُه وقال: يا شيخ، تبكي على كثرةِ الذنوب؟ قال: لا، فإنّ ذنوبي ليس لها قدرٌ عند الله تعالى مقدارَ قذًى؛ ولكن أبكي على أن الإيمانَ الذي حصلَ لي هل هو عند الله إيمانٌ مقبولٌ أم لا؟ ثم قال: اعلمْ أن البكاءَ على عشرة أجزاء، تسعةُ أجزاءٍ منها رياء، وجزءٌ واحدٌ لله بالإخلاص، فلو تقاطر دمعةٌ واحدةٌ في كلِّ سنةٍ لكفى.

قال: الاحتراز على العمل أشقُّ من العمل، إذ يكون شخصٌ يعملُ عملاً مقبولاً يُكتبُ في ديوان حسناته، ثم لا يزالُ يذكره ويُباهي به حتى يُكتبَ في ديوان الرياء.

ومن كلامه قال:

الفقير إذا دار حولَ الأغنياء، فاعلمْ أنّه مُراءٍ، وإذا دار حول الملوك فإنه سارق.

---

(١) كذا.

الزاهدُ من زهد في الدنيا بالفعل لا باللسان، فإنه لا يكون زاهدًا.

ليس الزهدُ في الدنيا بأكل خبز الشعير، ولا بلبس الكساء الغليظ؛ ولكنه أن لا يعلق القلبُ بالدنيا ويقتصر الأمل.

إذا رجعتَ إلى الله تعالى بكثرةِ الذنوب، فالذي بينك وبين الله أهونُ من الذي بينك وبين الخلق.

أقول: يعني ظلمك على غيرك أشقُّ وأشدُّ من ظلمك على نفسك، والله أعلم.

هذا أوان السكوت وملازمةِ[١] البيوت.

ليس شيءٌ خيرٌ للإنسان من كنٍّ ومَطمورةٍ يفرُّ إليها، فإنَّ السلفَ رضي الله تعالى عنهم كرهوا الشهرةَ في الخير، كما كرهوها في الشرِّ.

أقول: وليس شيءٌ أضرَّ للعبد الصالح من الاشتهار، خصوصًا في زماننا، فإنَّ الهوى غلب على النفوسِ، والطباعُ غالبًا جُبلت على الشرِّ، وكلٌّ يَجري إلى متابعته وموافقته في مقتضيات هوى نفسه، وفي مثل هذا الحالِ حفظُ الدين الذي هو رأس مال السعادات الأزلية شكلٌ في غاية الإشكال، ولذا قال بعضهم[٢]: الخمولةُ نعمةٌ وكلٌّ يتوقّاها، والشهرةُ نقمةٌ وكلٌّ يتولاّها، أعاذنا الله تعالى عن هذه الفتن. والله أعلم.

خيرُ السَّلاطين من تكون مُجالستُهُ مع العلماء، وشرُّ العُلماء من تكون مُخالطته[٣] مع السلاطين.

أوّلُ العبادات وأوْلاها الخلوةُ، فإن لم يتيسّر فطلبُ العلم، ثم العمل به، ثم السعي في نشرِهِ وتعليمه.

---

(١) في (ب): ولزوم البيوت.

(٢) هو قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد تقدّم صفحة (١٦٩).

(٣) في (أ): من تكون مجالسته.

ما تواضعتُ لأحدٍ مثل تواضعي لمن وجدتُ فيه حرفًا من الحكمة.

أقول: الحكمةُ هي العلم المقارن بالعمل، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] على ما قيل، والله أعلم.

اخترْ من الدنيا ما يربّي جسدَك، ومن الآخرة لقلبك.

لو كان للذنوبِ نتنٌ ورائحة كريهةٌ لما عاشَ أحدٌ في الدنيا من ذلك.

من رأى فضلاً لنفسه على غيرِهِ فهو متكبِّر.

أعزُّ الناسِ وأشرفُهم خمسةٌ: عالمٌ زاهد، وفقيهٌ صوفي، وغنيٌّ شاكر، وفقيرٌ صابر، وشريفٌ سني.

من لم يكن خاشعًا في صلاته فلا تكونُ تلك الصلاةُ مقبولةً صحيحة عند الله.

أقول: والخشوعُ فيها أن يكون الظاهرُ متوجِّهًا إلى القبلة الظاهرة، والباطنُ ـ أعني القلب ـ متوجِّهًا إلى القبلة الحقيقية ـ أي إلى الله تعالى ـ بحيثُ لا يلتفتُ في صلاته إلى ما سوى الله تعالى؛ ولذا ورد في بعضِ الأخبارِ عن النبيِّ ﷺ: «لو علمَ المُصلّي من يُناجي في صلاتِهِ لما التفتَ يمينًا وشمالاً»[1] التحقيقُ أنّه ينبغي أن لا يلتفتَ إلى الدُّنيا ولا إلى الآخرة، وهذه المرتبة هي نهايةُ الخُشوع لله تعالى في الصلاة، وأمّا أدنى الخشوعِ الذي هو مقامُ العوام أن يحفظَ قلبَه في الصلاةِ عن الأفكار الدنيوية، والوساوس الشيطانية، وإن لم يقدرْ على ذلك في جميعِ الصلاة فلا بدَّ من أن يكون قلبُهُ حاضرًا عند النية، وعند الانتقالِ من ركنٍ إلى ركنٍ آخر، وإن لم يحصلْ هذا أيضًا فظاهرٌ أنّه لا ينتفعُ بصلاتِهِ إلا دفعَ السيف عنه، والنهبَ عن أمواله في الدنيا والآخرة، فأمره إلى الله، والله أعلم.

الخُلُقُ الحسن للإنسان يُطفئُ غضبَ الله تعالى.

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف ١/ ٤٩ (١٥٠) عن الحسن عن النبي ﷺ. دون قوله: «يمنيًا وشمالاً».

اليقينُ ألاَّ تتَّهمَ[١] الله تعالى فيما يصلُ إليك.

من أحبَّه الله تعالى لا يُبغضُه أبدًا.

أقول: معناه: أن من جعلَهُ اللهُ تعالى في الأزلِ سعيدًا فأحبَّه، لا يُشقيه ألبتَّةَ ولا يُبغضه.

قال النبيُّ ﷺ: «السعيدُ من سعدَ في بطنِ أُمِّه، والشقيُّ من شقيَ في بطن أمه»[٢]، ولذا يقال: لا يتبدَّلُ الإسعادُ والإشقاء، لكن يمكنُ أن تتبدَّلَ السعادةُ الظاهرة، والشقاوةُ الظاهرة. ويظهرُ من هذا أنَّ المُسلمَ الذي يرتدُّ آخرَ عمره ـ والعياذ بالله منه ـ ما كان مَسعودًا في الأزل، ولا محكومًا عليه بالسعادة أبدًا، وكذلك لم يكن مَحبوبًا لله، وكذا الكافر الذي يُسلمُ آخرًا ويَحسنُ حاله كان مَسعودًا في الأزل، غير مبغوضٍ، ولذا قال بعضُ العارفين: أنتم تفزعون من الخاتمة والنهاية، والله أعلم.

إذا قيل لك: نعم الرجلُ أنت! فيعجبك، وإن قيل: بئس الرجلُ أنت! فيبغضك، فاعلم أنّك بعدُ رجلٌ سيِّءٌ قبيح.

سئل عنه: من اليقين؟ فقال: اليقين يثبتُ في القلب عند ثُبوت المعرفة.

وقال أيضًا: اليقينُ أن يكون الوعدُ عندك بمثابة العيان.

أقول: يؤيِّدُه ما رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه ما قال: لو كُشفَ الغِطاء ما ازددتُ يقينًا. والله أعلم.

سئل عنه: ما تقولُ في معنى قوله ﷺ: «إن الله تعالى يُبغض أهلَ بيتٍ يُكثرون أكل اللحم»[٣] قال: إنَّما أراد به النبيُّ ﷺ الغيبةَ، قال الله تعالى:

---

(١) في (ب): غضب الله تعالى. معناه: لا تتّهمَ الله.

(٢) قال المناوي في فيض القدير ٤/ ١٤٠: ذكره ابن الكمال، والبزار والديلمي كلهم عن أبي هريرة، قال ابن حجر: سنده صحيح.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٣٣، ٢٩٩ بلفظ: «إن الله يبغض أهل البيت اللحميين» عن كعب.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

نقل أنّه قال لحاتم الأصم: أُعلِّمُكَ أربعَ خصال؛ لتكون منها على حذرٍ؛ فإنّها من الجهل:

الأولى: الندامة على ما صدر إلاّ على الذنوب؛ فإنَّ الندامة من عدم رؤية القضاء من الله تعالى، وهو كفر.

أقول: يؤيِّدُه ما روي عنه ﷺ: «لو تفتحُ بابَ الشيطان[1]» كان يشير إلى ما اعتاده من قولهم: لو كان كذا كان كذا، ولو لم يكن كذا لم يصر كذا، والله أعلم.

والثانية: الحسدُ على الأخ المسلم؛ فإن ذلك من عدم اعتقادٍ أنَّ القسَّامَ هو الله، وذلك أيضًا كفر.

والثالثة: جمعُ المال من الحرام والشُّبهة، فإنه من عدمِ اعتقاد الحساب يومَ القيامة، وذلك أيضًا كفر.

والرابعة: الأمنُ من وعيدِ الله تعالى، وتركُ الرجاء بوعده، فإن ذلك أيضًا كفر.

أقول: أما الثلاثة الأولى إذا رسختْ في إنسانٍ لا شكَّ أنَّها ستجرُّه إلى الاعتقاد المذكور، ويصير كافرًا، وأمّا الرابعة أعني: الأمنُ من مكر الله تعالى، واليأسُ من روح الله، ففي الحالَ كفر بلا خلاف، قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] وقال: ﴿لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، والله أعلم.

نقل أنه كان يقولُ لأصحابِهِ وتلاميذه إذا أرادوا السفر: إنِ التقيتُمْ بأحدٍ يبيع الموت، فاشتروا لي. وحين حضرَتْهُ الوفاةُ بكى، وقال: كنت أَشتهي الموت؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) في القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز عن أبي هريرة بلفظ: «فإن لو تفتح عمل الشيطان». وذكره العجلوني في كشف الخفا ١/ ٣٢٣ عن مسلم بالرواية المذكورة في المتن.

ولكنَّ الورود على الله صعبٌ[١]، والقدومَ عليه شديدٌ، ليتَ هذا السفرَ يَحصلُ لنا بعصًا وكوزِ ماءٍ. ولذا كان إذا ذُكر الموتُ، أو سمعَ ذكرَه يُغشى عليه أيامًا، ويقول لمن يلتقي به: استعدَّ للموتِ قبل نزوله. وأصحابُهُ كانوا يقولون له وقتَ وفاته: طُوبى لك. وهو يهزُّ رأسَه، ويقول: أين أنتم؟ وماذا تقولون؟ أنا! متى أصلُ إلى الجنة؟ وهي! متى تصل إلي؟

أقول: مرادُه تحقيرُ أعماله، وأنّها ما صدرتْ عنه على وجهٍ تكون مقبولةً عند الله تعالى، واستعظامه أيضًا أمورَ الآخرة وأحوالَها، لا أنّه كان آيسًا من رحمة الله تعالى، فحاشاه من ذلك، فإن قلت: أَلَيس يُستحبُّ حينئذٍ حسنُ الظنِّ بالله تعالى؟ قلتُ: نعم، ولكنّ هذا لا يدلُّ على أنه في نفسِهِ لم يكن حَسَنَ الظنِّ به، غايتُهُ أن الخوفَ كان غالبًا عليه، وهذا من كمال الإيمان بالله وصفاته، فإنَّ مَنْ يكون عرفَ أنّه بالله وباليوم الآخر أكثر، فهو أَخوفُ وأفزع، والله أعلم.

رُويَ أن الخليفة قصدَ أن يُولّيه إمارةَ البصرة، فطلبوه لأجل ذلك، فوجدوه في إصطبلٍ، لما كان به من علّةِ البطن، ومع ذلك ما تركَ العبادةَ، ولم يسترحْ، حتى قيل إنه في ذلك المرض توضَّأَ في ليلةٍ ستين نوبةً، كلّما كان يتوضَّأُ ويُريدُ أن يشتغلَ بالعبادة بطنُه يتقاضاه ويحتاجُ إلى الوضوء.

قيل له: يا شيخ، كم تتوضَّأُ، وأنت ضعيف؟! قال: لأن يلقاني عزرائيلُ وأكون على الوضوءِ متطهِّرًا لا نجسًا، إذ مع النجاسةِ لا يكون التوجُّه إلى الله تعالى ميمونًا.

قال عبد الله بن المهدي: أوصاني سفيان وقال: إذا دفنتموني أرجو منكم أن تضعوا خدّي على التراب؛ لعلَّ الله يرحمُ ذُلّي وفقري. ثم قال: الآن حطُّوا وجهي على التراب؛ فإنَّ أجلي قريب.

قال الراوي: فعلتُ ما رسم، وخرجتُ لأُعْلِمَ الناسَ والأصحاب، وجدتُهم اجتمعوا والتأموا هناك، قلت: من أخبركم بالحال؟ قالوا: كنّا نيامًا، فرأينا في

---

(١) في (أ): ولكن المرور على الله صعب.

المنام: أن احضروا جنازةَ سُفيان، فدخلوا عليه، وقد ضاقَ عليه الوقتُ، أَخرجَ من وسطه صُرّةً من الذهب، وسلّم إلى أصحابه، وأوصاهم أن يتصدّقوا به على الفقراء، قالوا: سبحان الله، كان يأمرنا بتركِ الدُّنيا، وهو قد حوى هذا القدرَ من المال، وشدَّه على وسطه! سمع سفيانُ مقالتَهم، وقال: حويتُ هذا لأنّه كان حارسًا لديني لئلا يتسلَّطَ عليَّ الشيطانُ، فإنّه كلّما أرادَ أن يُوسوسَ في صدري، ويُلقي في روعي: ماذا تأكل غدًا؟ ماذا تلبس؟ كنتُ أدفعُهُ عنّي، وأمنّي نفسي بأنَّ لي مالاً حاضرًا معي، وما كان لي حاجةٌ إلى هذا المال.

أيضًا قال لهم هذا الحديث، وتكلّم[1] بالشهادتين، وتوفّي إلى رحمة الله تعالى.

نقل أن مُورّثًا له مات ببُخارى، ووصلَ إليه من تركته هذه الصرَّةُ من النقد وكانت محفوظةً في بُخارى عند بعض الناس ثمانية عشر سنة[2]، ثم بعثوا إليه، وبقيت عنده مدّةً، وهو لأجل تسلية النفسِ، ولئلا تأمرَهُ بالسُّؤال عن الناس، أو القبول عنهم، كان يحفظُها، فلمّا حصلَ له اليأس من الحياة[3]، وصّى بالتصدّق بها.

نقل أنه حين دُفن سمعوا صوتًا صَريحًا، يقال: مات الوَرِعُ، مات الورع.

رآه بعضُ الناسِ في الليلة الأولى في المنام، وقال له: كيف صبرتَ على وحشةِ القبر وظلمته؟ فقال: قبري روضةٌ من رياض الجنة، أين الوحشة؟

رآه شخصٌ آخرُ في المنام، قال: كيف حالُكَ؟ قال: وضعت إحدى قدمي على الصراط والأخرى في الجنة.

نقل أن شخصًا آخر رآه في المنام أنّه يَطيرُ من بعضِ أشجار الجنة إلى بعضٍ، قال له: بم نلتَ هذه المنزلة؟ قال: بالورع.

---

(١) في (ب): هذا الحديث أيضًا وتكلم.

(٢) كذا في الأصلين.

(٣) في (أ): حصل له اليأس من الناس ومن الحياة.

ونقل أنه كان شفوقًا على خلق الله، إلى أنه كان يتماشى في بعض الأسواق رأى طيرًا مَحبوسًا في قفصٍ، يَصيحُ ويطلبُ الخروج إلى الصحراء، فأشفقَ عليه، وحنَّ من أنينه، واشتراه وشمّره[1]، والطيرُ كان بالنهار يطيرُ إلى الصَّحارى، وبالليل كان يأوي إلى منزل الشيخ، وهو يشتغلُ بالصلاة والعبادة، والطيرُ ينظرُ إليه، ويجلس عليه أحيانًا، حتى أن اليوم الذي تُوفّي رحمه الله جاء الطيرُ، وكان يضربُ جسدَهُ على نعشِ الشيخِ، ويضطربُ ويخفقُ إلى أن دُفِنَ الشيخُ، فنزل على قبره، ومات هو أيضًا هناك. ولما رجعَ الناسُ عن دفنه، سمعوا صوتًا: يقال إنَّ الله تعالى رحمَ سفيان لشفقته على خلقِ الله.

اللهم، إنّا نسألُكَ ونتوجَّهُ إليك بحبيبك ونبيِّك محمدٍ عليه الصلاة والسلام أن تعدَّنا من الصالحين، وتحشرَنا في زمرةِ الأنبياء عليهم السلام، والشهداء والصدّيقين، آمين.

* * *

(١) شمَّر الصقر: أرسله. معجم متن اللغة.